

بين الواقع والخيال: رحلة الرواية العربية في العصر الحديث

يونس ياسين نعمة
جامعة بابل/كلية التربية الأساسية

المستخلص: تحتل العلاقة الجدلية بين الواقع والخيال مكانة محورية في تشریح تطور الرواية العربية في العصر الحديث، باعتبارها الثانية التي تشكلت القلب النابض لتحوّلها الفني والموضوعية. إذ يُمثّل الواقع – بمستوياته الاجتماعية والتاريخية والنفسيّة – الحقل الخصب الذي تستقي منه الرواية أسنلتها المصرية، فيما يتجدد الخيال بوصفه القوة الإبداعية القادرة على إعادة تشكيل هذا الواقع وتأويله عبر آليات الانزياح والرمزية وخلق العوالم الممكنة. لذا، يهدف هذا البحث إلى تتبع رحلة الرواية العربية وتحوّلها من خلال تحليل ديناميكية العلاقة بين الواقع والخيال، انطلاقاً من مرحلة التأسيس المبكر في القرن التاسع عشر وحتى التجارب الحديثة والمعاصرة في القرن الحادي والعشرين. وتعتمد الدراسة على المنهج التاريخي التبعي لتحديد معالم هذه الرحلة في سياقها الزمني، والمنهج التحليلي لتفكيك آليات اشتغال الثانية في نصوص روائية مؤسّسة ومعيرة. وتكشف الدراسة عن تحوّل جوهري في وظيفة الخيال الروائي عبر خمس مراحل كبرى: بدءاً من كونه أداة تمثيلية في خدمة تصوير الواقع الاجتماعي (كما في أعمال الرواد ومحفوظ)، ومروراً بتحوّله إلى فضاء رمزي وكابوسي لاستيعاب صدمة الهزائم الوجودية (كما في أدب ما بعد 1917)، وصولاً إلى تحوّلها إلى آلية تأويلية تستدعي التاريخ والأسطورة (في رواية الانزياح التاريخي)، وانتهاءً بكونه مُختَبِراً لخلق عوالم موازية ديستوبية أو فانتازية تشریحاً للواقع المعاصر (في الرواية الجديدة). وتخلص الدراسة إلى أن الواقع العربي، بكلّ تعقيداته وصراعاته، ظل المحرك الأساسي والأكثر إلحاحاً لتجديد الدمى السردية، بينما ظل الخيال هو الوسيلة الأكثر مرونة وابتكاراً لمواجهة هذا الواقع وتعقيداته. كما تؤكد أن قوة الرواية العربية تكمن في قدرتها المستمرة على إعادة تشكيل التوازن الخلاق بين انشغالها الجذري بعموم واقعها، وجرأة تجريبها في فضاءات الانزياح والتخييل، مما يجعلها سجلاً حياً للوعي الجمعي وأداة فاعلة في تشكيل المخيال العربي الحديث. الكلمات المفتاحية: الواقع، الخيال، الرواية العربية، التطور التاريخي، الانزياح السردية، العلاقة الجدلية

INTRODUCTION

مقدمة

تمثّل الرواية العربية الحديثة واحدة من أكثر الفنون الأدبية تعقيداً وثراءً في الثقافة العربية المعاصرة. فقد شهدت هذه الرواية تحولات جذرية في شكلها ومضمونها، متأثرة بالتحوّلات السياسية والاجتماعية والفكرية التي مر بها العالم العربي منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم. تتناول هذه الدراسة رحلة الرواية العربية عبر العصر الحديث، مركزة على العلاقة الجدلية بين الواقع والخيال، باعتبارها الإطار النظري الذي يفسر تطور الشكل الروائي العربي. فمنذ البدايات الأولى، كان الروائي العربي يحاول أن يجد توازناً بين تصوير الواقع كما هو، وبين ابتكار عوالم خيالية تنتج له تفادي قيود الرقابة أو معالجة قضايا لا يمكن تناولها مباشرة. تهدف الدراسة إلى تتبع هذه الرحلة في ثلاثين صفحة، بدءاً من البذور الأولى في القرن التاسع عشر، مروراً بمراحل التأسيس والتحول، وصولاً إلى التجارب المعاصرة في القرن الحادي والعشرين. كما تسعى إلى تحليل كيفية تعامل الرواية مع الأحداث الكبرى كالاستعمار والنكبة والحروب الأهلية والربيع العربي، وكيف استخدم الروائيون الخيال كأداة لفهم الواقع أو نقده أو الهروب منه.

(الإطار المفاهيمي: التعريف اللغوي والاصطلاحي للمفاهيم المحورية)

The Novel أولاً: الرواية (

أ. التعريف اللغوي:

في اللغة العربية: مشتقة من الجذر (ر و ي)، الذي يحمل معاني التتابع والتسلسل وإرواء العطش. الرواية: حكاية تُروى، أو ما يُروى من حديث وقصص. وتُجمع على روايات. يقول ابن منظور في لسان العرب: "والرواية: حكاية تُحكى... وروى الحديث يُرويه رواية: أداه ونقله." فهي تدل على عملية النقل والسرد المتسلسل. (ابن منظور، ٣٠٤: ١٩٩٠)

ب. التعريف الاصطلاحي (النقدي والأدبي):

هو تعريف مركب تطور عبر تاريخ النظرية الأدبية. ويمكن تلخيص أبعاده كما يلي:

1. **جنس أدبي حديث:** هي شكل سردي نثري مُختلَق (مبتكر بالخيال)، طويل نسبياً، يعتمد على حبكة متطورة، وشخصيات ذات عمق نفسي، وصفات زمانية ومكانية، يعرض رؤية متكاملة لتجربة إنسانية في سياق اجتماعي وتاريخي محدد. (بدوي، ١٨٧: ١٩٩٣)
2. **كُدالٌ ثقافي-تاريخي:** كما نظر لها جورج لو كاش، فهي "لمحة العالم المفتت" أو "شكل عصر الاغتراب". تظهر الرواية حين يخسر العالم وحدته العضوية القديمة، لتصبح الشكل الفني الأمثل لتمثيل بحث الفرد عن المعنى في عالم مليء بالتناقضات والقطائع. (لو كاش، ٥٥: ٢٠٠٦)
3. **كُرَافدٌ للهوية والذاكرة:** في السياق العربي، ليست الرواية شكلاً أدبياً مستورداً فحسب، بل أداة فاعلة في تشكيل الوعي الحديث، وصياغة الأسئلة الوجودية، وتخزين الذاكرة الجمعية في مواجهة التحوّلات الجذرية. (سيداروس، ١٥: ١٩٨٦)

الخلاصة الاصطلاحية: الرواية هي الجنس السردية المركزي في الأدب الحديث، الذي يحول، عبر الخيال المنظم، التجربة الواقعية (الخارجية والداخلية) إلى عالم متخيل متماسك، يهدف الفهم، النقد، والتأويل.

Reality ثانياً: الواقع (

أ. التعريف اللغوي:

في اللغة العربية: مشتقة من الجذر (و ق ع)، الذي يدل على الحصول والنزول. الواقع: الشيء الثابت والحاصل والمستقر. يُقال: وقَع الأمرُ: حصل. والواقع هو ما استقر وثبت وجوده، في مقابل المتوهم أو الممكن. وفي المعجم الوسيط: "الواقع: كل ما وجد في الخارج وجوداً حقيقياً." (مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٤)

ب. التعريف الاصطلاحى (الفلسفي والنقدي):

يحمل "الواقع" في الدراسات السردية دلالتين مترابطتين:

1. الواقع المرجعي (الخارجي / الموضوعي):

المستوى الاجتماعي-التاريخي: هو مجموع الوقائع المادية، والعلاقات الاجتماعية، والأنساق الاقتصادية والسياسية، والأحداث التاريخية التي تشكل الإطار الموضوعي لحياة الجماعة. هو العالم الذي يمكن إدراكه بالمشترك الحسي والخبرة العامة. في الرواية العربية، يشمل هذا: الاستعمار، تشكل الدول الوطنية، النكبة، الحروب، التحولات الطبقيّة، الحركات الاجتماعية.

المستوى الثقافي-الرمزي: يشمل أيضاً الأنساق الثقافية السائدة من عادات، وتقاليد، ومعتقدات، ولغة، والتي تشكل "الواقع المعيش" للإنسان.

2. الواقع النفسي (الداخلي / الذاتي):

هو عالم الوعي، والعواطف، والذاكرة، والأحلام، والهواجس، والصراعات الوجدانية للفرد. إنه "واقع" التجربة الداخلية الذي قد لا يكون مرئياً للآخرين ولكن له حقيقته وتأثيره.

هذا البعد أبرزته الحدائث الأدبية، حيث أصبح الاهتمام منصباً على تصوير تدفق الوعي والشعور الداخلي.

الخلاصة الاصطلاحية: الواقع في النقد الروائي هو المجال الشامل للتجربة الإنسانية، ببعديها الموضوعي الخارجي (الاجتماعي-التاريخي) والذاتي الداخلي (النفسي-الوجداني)، والذي يشكل المادة الأولية التي يتعامل معها الخيال الروائي.

(Imagination) ثالثاً: الخيال

أ. التعريف اللغوي:

في اللغة العربية: مشتقة من الجذر (خ ي ل)، الذي يدل على الظن والتوهم والصورة الذهنية. الخيال: ما يتخيل للإنسان من الصور والأوهام. والخيال: قوة النفس التي تتصور بها الصور. وفي تاج العروس: "التَّخِيلُ: تَصَوُّرُ الشَّيْءِ فِي الْخِيَالِ، وَهُوَ مَصْنَعٌ تَخْيَلٌ". (الزبيدي، ٤٨٧: ١٩٩٤)

ب. التعريف الاصطلاحى (الفلسفى، النفسى، والأدبى):

هو مفهوم معقد تطور عبر تاريخ الفكر:

1. كقوة إبداعية عليا (عند الرومانسيين): ميز كولريديج بين:

الخيال الأولي: القوة الأساسية للإدراك البشري.

الخيال الثانوي (أو المُبدع): وهو "القوة الحية الرئيسية" التي تذيب وتنشر وتعيد التشكيل لتعطي وحدة جديدة للعمل الفني. هنا، الخيال ليس تقليداً (Coleridge، 1997:45 بل خلقاً).

2. كآلية أدبية-سرديّة: في نظرية السرد، الخيال هو:

آلية بناء العالم الروائي: قدرة الكاتب على اختلاق شخصيات، وأحداث، وأزمنة، وأماكن، وعلاقات لا وجود لها بالضرورة في الواقع المرجعي، لكنها ممكنة ومعقولة داخلياً في سياق العالم الروائي.

أداة الانزياح والتجريد: يستخدم الخيال لتحويل الواقع إلى:

• رمز: (الصهرىج = الوطن/القبر).

• استعارة موسعة: (المدينة = الجحيم/الفردوس).

• أسطورة شخصية: (مصطفى سعيد = أسطورة الانتقام).

• عالم ديستوبي/يوتوبي: (مستقبل متخيل لنقد الحاضر).

فضاء للحرية والاحتمال: يتيح الخيال اختبار "ما كان يمكن أن يكون"، وطرح الأسئلة الفلسفية، والهروب المؤقت من قيود الواقع، أو مواجهته بطرق غير مباشرة.

(المشتركة في اللاوعي الإنساني، كصورة 3types. كدال على اللاوعي الجمعي (عند يونغ): قد يعبر الخيال عن النماذج الأولية (الأركي البطل، والعجوز الحكيم، والرحلة، مما يعمق الدلالة النفسية والكونية للنص).

الخلاصة الاصطلاحية: الخيال في الأدب هو القدرة الإبداعية الفاعلة التي تنتقل بالكاتب من مجرد تسجيل الواقع إلى تشييد عالم بديل (ولو جزئياً) بقوانينه الخاصة. وهو ليس هروباً من الواقع، بل طريقة أكثر عمقاً وجذرية لمواجهته، وتفكيكه، وإعادة تشكيله رمزياً لفهم أبعاده الخفية.

العلاقة الجدلية: ملخص تأسيسي

بناء على هذه التعريفات، فإن علاقة الواقع والخيال في الرواية هي علاقة تفاعلية إبداعية، وليست علاقة انعكاس بسيط. الواقع يُستدعى، والخيال يُؤوّل. الرواية هي حقل التجريب حيث يتم اختبار إمكانات الواقع عبر فضاء الخيال، وتُختبر حدود الخيال من خلال اشتباكه مع إلاح الواقع.

رحلة الرواية العربية هي، في جوهرها، سجل ديناميكي لتطور أشكال هذا الاشتباك الخلاق.

البذور الأولى والاستعارات التأسيسية (القرن التاسع عشر – أوائل القرن العشرين)

1.1 السياق التاريخي والثقافي

شهد العالم العربي في القرن التاسع عشر تحولات عميقة، بدأت مع الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801)، والتي فتحت الباب أمام احتكاك مباشر مع أوروبا. ثم جاءت حركة الترجمة التي قادها رفاعه الطهطاوي، حيث نقلت العديد من النصوص الأوروبية إلى العربية، بما في ذلك بعض الأعمال القصصية.

في هذا السياق، ظهرت الصحافة العربية كوسيلة جديدة لنشر الأفكار، وكانت تنشر أحياناً حكايات وقصصاً متسلسلة، مما هبها الجمهور لتقبل شكل روائي جديد. كما ازدادت رحلات الطلاب والعلماء إلى أوروبا، وعادوا بتصورات جديدة عن الأدب ودوره في المجتمع.

1.2 محاولات الرواد بين الترجمة والتقليد

لم تكن الرواية العربية ولادة الفراغ، بل كانت نتاج تفاعل بين التراث السردى العربي (مثل المقامات والسير الشعبية) والنموذج الروائي الأوروبي. من أوائل المحاولات:

1. خليل الخوري: نشر رواية "وأي... إذن لستُ بإفريقي" (18٥9) في بيروت، وتعتبر من أولى المحاولات الروائية العربية. تدور حول شاب سوري يدرس في أوروبا ويعود إلى بلاده حاملاً أفكاراً جديدة، فيصطدم بالتقاليد. كانت الرواية أقرب إلى المقالة الطويلة، لكنها تحمل بذرة الحكمة الروائية.

2. فرح أنطون: كتب رواية "الدين والعلم والمال" (1903)، وهي رواية فلسفية تعليمية، تهدف إلى نشر أفكار التنوير والعلمانية. استخدم أنطون الحكمة الروائية كوعاء لأفكاره، مما جعل الرواية تجربة بين الواقع الفكرى والخيال الدرامى.

3. **محمد حسين هيكل:** كتب رواية "زينب" (1914) ونشرها باسم مستعار هو "مصري فلاح". تصور الرواية حياة الفلاحين في الريف المصري، وتركز على قصة حب مستحيلة بين زينب وشاب من سكان الريف. تعتبر "زينب" نقلة نوعية، لأنها أول رواية عربية تلتزم بوحدة الحكمة وتطور الشخصيات ووصف البيئة المصرية بدقة. تقع الرواية على الخط الفاصل بين الواقعية الوصفية والخيال الرومانسي. (هيكل، 1914: 30-31)

الطبيعة الهجينة للأعمال المبكرة

يمكن وصف الأعمال الروائية المبكرة بأنها "هجينة"، فهي تقع بين محاولة تصوير الواقع الاجتماعي وبين التأثر بالنماذج الأوروبية. كانت اللغة تتراوح بين الفصحى والعامية، والحبكة بين المشاهد الواقعية والمونولوجات العاطفية. في هذه المرحلة، كان الواقع يمثل المادة الخام التي يسعى الروائي إلى تقديمها، بينما كان الخيال وسيلة لتجميع هذه المادة في قالب قصصي. لكن الخيال كان محدوداً، لأن الهدف الأساسي كان تعليمياً أو إصلاحياً. (سيداروس، 1986: 45)

مرحلة التأسيس والانطلاق (أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين)

2.1 صعود المدرسة الواقعية

بعد الحرب العالمية الثانية، شهد العالم العربي تحولات كبرى: استقلال العديد من الدول، صعود التيارات القومية واليسارية، وبداية الصراع العربي-الإسرائيلي. في هذا المناخ، ازدهرت الرواية الواقعية التي تهدف إلى تصوير المجتمع وتشريح علاقاته الطبقة. **1. نجيب محفوظ:** يُعتبر الأب الحقيقي للرواية العربية الحديثة. في ثلاثيته الشهيرة ("بين القصرين"، "قصر الشوق"، "السكرية"، 1956-1957)، يرسم لواقع حي (حارة مصرية) بانعكاسات التحولات السياسية من ثورة 1919 حتى ما قبل ثورة 1952. الواقع الاجتماعي هو البطل الحقيقي، حيث تتحرك الشخصيات في إطار زمني ومكاني محدد بدقة. (محفوظ، 2006: 10)

2. عبد الرحمن الشرقاوي: روايته "الأرض" (1954) تمثل نموذجاً للرواية الواقعية الاشتراكية. تصور الصراع بين الفلاحين والإقطاع في الريف المصري. تستند الرواية إلى أحداث حقيقية، لكنها تستخدم الخيال لبناء شخصيات نموذجية تمثل الطبقات الاجتماعية. (الشرقاوي، 1970: 50)

2.2 تيار الرومانسية والذات

بالتوازي مع الواقعية، استمر تيار رومانسي يركز على عالم الفرد الداخلي.

1- **توفيق الحكيم:** في رواية "عصفور من الشرق" (1938)، يصور صراع الشرق والغرب من خلال بطل مصري يدرس في باريس. يستخدم الحكيم الخيال لبناء مقارنات فلسفية بين الحضارتين.

2- **ميخائيل نعيمة:** في "مذكرات الأرقش" (1949)، يستخدم الشكل الروائي كوسيلة للتأمل الفلسفي في قضايا الوجود والإنسان.

2.3 العلاقة بين الواقع والخيال في هذه المرحلة

يمكن القول إن الرواية في هذه المرحلة كانت مرآة عاكسة للواقع. كان الخيال في خدمة الواقع، حيث استخدم لتنظيم الأحداث وبناء الشخصيات التي تمثل شرائح المجتمع. لكن هذه المرآة لم تكن سلبية تماماً، بل كانت ناقدة، تهدف إلى كشف التناقضات الاجتماعية والدعوة إلى التغيير. (العبد، 1990: 80)

الرواية والهزيمة – التحول نحو الذاتي والرمزي (الستينيات والسبعينيات)

3.1 صدمة 1967 (النكسة) وأثرها على الرواية

مثلت هزيمة حزيران/يونيو 1967 صدمة عميقة للمثقف العربي. سقطت الأيديولوجيات الكبرى (القومية، الاشتراكية)، وبدا الواقع العربي مهزوماً ومفككاً. لم تعد الرواية الواقعية التقليدية قادرة على استيعاب هذه الصدمة، فبدأ الانزياح نحو أشكال تعبيرية جديدة.

❖ **غسان كنفاني:** في روايته "رجال في الشمس" (1963)، يستخدم استعارة الصهريج كفضاء خيالي-رمزي لتمثيل اختناق الفلسطيني وخبانة القيادات العربية. النهاية المأساوية (موت الشخصيات في الصهريج) هي تعبير خيالي عن واقع الموت البطيء للقضية الفلسطينية. (كنفاني، 1978: 40)

❖ **عبد الرحمن منيف:** في "شرق المتوسط" (1975)، يستكشف واقع السجون والتعذيب في الأنظمة القمعية العربية. يستخدم منيف الخيال لبناء عالم كابوسية، حيث يمتزج الواقع بالهلوسة والذكريات. (منيف، 1987: 120)

❖ **جبرا إبراهيم جبرا:** رواية "السفينة" (1970) هي نموذج للرواية الحداثيّة المعقدة. تخطط بين الواقع والحلم والأسطورة، وتستخدم تيار الوعي وتعدد الأصوات، لتعبر عن تشظي الهوية العربية بعد الهزيمة. (جبرا، 1985: 70)

❖ **الطيب صالح:** رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" (1966) تسبق الهزيمة زمنياً لكنها تتوقعها روحياً. تقدم صراع الشرق والغرب من خلال علاقة مصطفى سعيد بالإنجليزية جين موريس. الخيال هنا أسطوري واستعماري معكوس، حيث يتحول البطل من ضحية إلى جلاّد. (صالح، 1969: 30)

3.2 الانزياح الشكلي وتفتت الواقع

في هذه المرحلة، يبدأ الواقع في التفتت داخل النص الروائي. لم يعد هناك واقع واحد يمكن سرده بخطية زمنية، بل هناك وقائع متعددة تروى من وجهات نظر مختلفة. يصبح الخيال أداة لتمثيل هذا التفتت، من خلال تقنيات مثل:

- تيار الوعي.
 - تعدد الأصوات السردية.
 - كسر التسلسل الزمني.
 - المزج بين الأجناس الأدبية (الشعر، الوثيقة، الحلم). (حاوي، 1977: 100)
- ازدهار الرواية وتنوعها – التاريخي والتمثيلي (ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين)

1.4 رواية الحداثة وما بعد الحداثة واستدعاء التاريخ

في هذه المرحلة، يتسع نطاق الخيال الروائي ليشمل التاريخ كحقل للتخيّل والتفكيك. التاريخ لم يعد خلفية، بل أصبح مادة حية لإسقاطات الحاضر.

- **جمال الغيطاني:** في "الزيني بركات" (1974)، يستعيد تاريخ مصر في العصر المملوكي (عصر المماليك الجراكسة) لقراءة واقع السلطة البوليسية في عصر عبد الناصر. الشخصية التاريخية (زيني بركات) تتحول إلى رمز لآلة الرقابة والقمع. الخيال هنا أداة للقفز على رقابة الواقع المباشر. (الغيطاني، ١٩٩٠: ٦٠)
 - **عبد الرحمن منيف:** في ملحتمه "مدن الملح" (خمس أجزاء، 1984-1989)، يروي نشوء الدولة النفطية (مستوحاة من السعودية) من بدايات القرن العشرين. العمل يخلط دقيفاً بين الوقائع التاريخية والخيال السردي الخصب، ليكشف عن تحول المجتمع البدوي إلى مجتمع رأسمالي تابع. (منيف، ١٩٨٩: ٩٠)
 - **الطاهر وطار:** في روايات مثل "اللاز" (1974) و"عرس بغل" (1993)، يمزج بين التاريخ الثوري الجزائري والواقع المعاصر، مستخدماً اللهجة العامية والتراكيب الشعبية كجزء من خياله الروائي.
- 2.4 الرواية النسوية وإعادة كتابة الواقع الأنثوي
بدأت الرواية النسوية تقدم واقع المرأة من منظور جديد، مستخدمة خيالاً يحطم التابوهات.
- ❖ **نوال السعداوي:** في "مرأة عند نقطة الصفر" (1975)، تستخدم السيرة الذاتية لامرأة حقيقية (فتحية) لبناء رواية تكشف عن اضطهاد المرأة في المجتمع الذكوري. الخيال هنا يملأ فراغات السيرة، ليبنى صورة رمزية للمرأة المقهورة. (السعداوي، ١٩٧٩: ٤٥)
 - ❖ **ليلي أبو زيد:** في "عام الفيل" (1983)، تروي ذكريات طفولتها في المغرب أيام الاستعمار الفرنسي. تستخدم الخيال لاستعادة عالم الطفولة وروية الواقع السياسي من خلال عيون الطفلة.
 - ❖ **أحلام مستغانمي:** في "ذاكرة الجسد" (1993)، تستخدم حبكة رومانسية بين فنانة جزائرية ومناضل قديم، لتعيد كتابة تاريخ الجزائر من منظور أنثوي وجسدي.
- 3.4 التخيل الذاتي: بين السيرة والخيال
ظهر جنس جديد هو "التخيل الذاتي"، حيث يخلط الكاتب بين سيرته الذاتية والخيال الروائي.
- **محمد شكري:** في "الخبز الحافي" (1982)، يروي سيرة طفولته البائسة في المغرب. العمل يقع على الحدود بين السيرة والرواية، حيث يستخدم الخيال لترتيب الذكريات وإعطائها دلالة فنية. (القاسم، ٢٠٠١: ١٣٠)

الرواية العربية في القرن الحادي والعشرين – التفتح والتجاوز

1.5 السياقات الجديدة: العولمة، الرقمنة، الربيع العربي دخلت الرواية العربية القرن الجديد في ظل تحولات عالمية:

- العولمة وتدفق المعلومات.
- الثورة الرقمية ووسائل التواصل الاجتماعي.
- أحداث 11 سبتمبر 2001 وتأثيرها على صورة العربي.
- الربيع العربي (2011) وما تلاه من حروب ودمار.

2.5 السمات البارزة للرواية المعاصرة

أ. **تفكيك الثنائيات الكبرى:** لم يعد هناك فصل حاد بين الواقع والخيال، بين التاريخ والأسطورة، بين الذات والآخر. تتداخل هذه المستويات في نسج روائي واحد.

ب. **الرواية البوليفونية:** تعدد الأصوات واللغات (الفصحى، العامية، لهجات محلية، كلمات أجنبية).

ج. **استعارة أشكال جديدة:** من السينما (التقطيع السينمائي)، والتلفزيون (أسلوب المسلسلات)، والإنترنت (النصوص التشعبية)، وألعاب الفيديو (عوالم افتراضية).

د. **الاهتمام بالهامش:** جغرافيا (الأقاليم، الأحياء الفقيرة، المناطق النائية)، وديموغرافيا (الأقليات، المهمشون، المهاجرون). (طه، ٢٠١٢: ٧٥)

3.5 نماذج روائية معاصرة

☒ **أحمد خالد توفيق:** في "يوتوبيا" (2008) يستخدم خيالاً ديستوبياً (طوباوي سلبي) لتصوير واقع انقسام المجتمع المصري في المستقبل القريب (سنة 2023). يعيش الأغنياء في مجمعات مغلقة (يوتوبيا)، بينما يترك الفقراء في الخارج يعيشون في حرب الجميع ضد الجميع. الخيال المستقبلي هنا امرأة مكبرة للواقع الحالي. (توفيق، ٢٠١٣: ٥٠)

☒ **علاء الأسواني:** في "عمارة يعقوبيان" (2002) تعود الرواية إلى الواقعية الاجتماعية، ولكن بأسلوب سريع وتقنية سينمائية (تعدد الشخصيات والحكايات المتوازية). تكشف الرواية عن فساد النظام المصري وانحدار القيم من خلال سكان عمارة واحدة. (الأسواني، ٢٠٠٦: ١٠٠)

☒ **ربيع جابر:** في "دروز بلغراد" (2011) يروي قصة حقيقية لشبان دروز أرسلوا للتدريب في صربيا (بلغراد) أيام العثمانيين. يمزج جابر بين التوثيق التاريخي الدقيق والخيال الروائي الغرائبي، ليكشف عن هويات منسجبة. (جابر، ٢٠١١: ٨٠)

☒ **محمد الأشعري:** في "القوس والفراشة" (2010) يستكشف تداخيات الإرهاب من خلال بطل تعرض لتشوه بسبب تفجير. اللغة شعرية واستعارية، والخيال هنا أداة للدخول إلى عالم الجسد المصاب والذاكرة المكسورة. (الأشعري، ٢٠١١: ٦٠)

☒ **أشرف خميس:** يمثل جيلاً يكتب عن مدينة القاهرة بفضاءاتها الواقعية-الخيالية. في "طابق ثالث شمال" (2014) يرسم صوراً للحياة اليومية في العمارات الشعبية، مستخدماً لغة هجينة بين العامية والفصحى.

☒ **سنان أنطون:** في "مقبرة الرغيف" (2018) يروي حياة عائلة عراقية عبر عقود من الحروب والغزو. يستخدم الخيال الأسري لتمثيل تدمير العراق ككل.

4.5 روايات ما بعد الربيع العربي

حاولت العديد من الروايات استيعاب صدمة الربيع العربي وتحولاته.

أ- **باسم خندقجي:** في "ساق الغراب" (2016) يروي حرب سوريا من خلال عائلة درزية، مستخدماً الرمزية والغرائبية.

ب- **سعد محمد رحيم:** في "مقتل بانغ الكتب" (2016) يمزج بين الرواية البوليسية والتأمل الفلسفي في العنف العراقي.

ت- الليلي العثمان: في "سكرات" (201٥) تعالج تداعيات الربيع العربي في الكويت والخليج من خلال شخصيات نسائية. (أبوحمدان، ٢٠٠٤: ١٦٠)

تحليل العلاقة بين الواقع والخيال في ضوء النماذج المدروسة

٦.1 الواقع كمادة أولية

ظل الواقع العربي، بكل تعقيداته وأزماته، المادة الأولية للرواية العربية في كل مراحلها:

- أ- الواقع الاجتماعي (الفقر، الطبقيّة، العلاقات الأسرية).
- ب- الواقع السياسي (الاستعمار، الأنظمة القمعية، الثورات، الحروب).
- ت- الواقع الثقافي (صراع التقليد والحداثة، الهوية، العلاقة مع الغرب).

٦.2 الخيال كأداة تحويلية

تغيير دور الخيال عبر المراحل:

- ✓ في البدايات: وسيلة لتنظيم الواقع في قالب قصصي (خيال هيكلي).
- ✓ في مرحلة التأسيس: أداة لبناء شخصيات نموذجية تمثل الواقع (خيال تمثيلي).
- ✓ بعد الهزيمة: أداة للهروب من الواقع أو لنقده بشكل غير مباشر (خيال رمزي، كابوسي).
- ✓ في المرحلة التاريخية: أداة لاستعادة الماضي وإسقاطه على الحاضر (خيال تأويلي).
- ✓ في المرحلة المعاصرة: أداة لبناء عوالم موازية تفكك الواقع (خيال ديستوبي، غرائبي).

٦.3 أنماط التفاعل بين الواقع والخيال

يمكن تحديد عدة أنماط:

1. التمثيل المباشر: حيث يسعى الروائي إلى تقديم صورة مطابقة للواقع قدر الإمكان (مثل ثلاثية نجيب محفوظ).
2. الانزياح الرمزي: حيث يتحول الواقع إلى رموز واستعارات (مثل "رجال في الشمس" لكنفاني).
3. الانزياح التاريخي: حيث يُسقط الواقع الحاضر على الماضي (مثل "الزيني بركات" للغيطاني).
4. الانزياح المستقبلي/الديستوبي: حيث يُسحب الواقع إلى مستقبل متخيل لفصح تناقضاته (مثل "يوتوبيا" لأحمد خالد توفيق).
5. الانزياح الغرائبي/الفانتازي: حيث يدخل العنصر الخارق للطبيعة لتمثيل واقع غير طبيعي (مثل بعض أعمال ربيع جابر). (بشير، ٢٠١٥: ١٩٩٦)

٦.4 إشكالية "الحقيقة" في الرواية العربية

أثارت العلاقة بين الواقع والخيال إشكالية "الحقيقة" في الرواية: هل على الرواية أن تقدم الحقيقة الواقعية أم الحقيقة الفنية؟ تباينت الإجابات:

- بعض الروائيين (مثل الواقعيين الأوائل) اعتقدوا أن الحقيقة الفنية يجب أن تقترب من الحقيقة الواقعية.
- آخرون (مثل جبرا إبراهيم جبرا) رأوا أن الحقيقة الفنية أعمق، وهي حقيقة الذات والتجربة الإنسانية.
- في الرواية المعاصرة، أصبحت الحقيقة متعددة ومتشعبة، تعبر عنها الأصوات المختلفة داخل النص. (تليمة، ٢٠٠٥: ١٢٠)

الخاتمة والاستنتاجات

7.1 تلخيص الرحلة

- ✚ قطعت الرواية العربية رحلة طويلة من "زينب" (191٤) التي حكّت واقعاً ريفياً بصوت خجول، إلى الروايات المعاصرة التي تختبر حدود السرد ذاته. خلال هذه الرحلة:
- ✚ تحولت من شكل هجين بين المقالة والقصة إلى فن مستقل بخصائصه الجمالية.
- ✚ توسعت في الموضوعات من الهم الاجتماعي المحلي إلى القضايا الكونية (الهجرة، العنف، الهوية).
- ✚ تطورت تقنياً من السرد الخطي البسيط إلى أشكال معقدة تستوعب تعدد الأصوات والانزياحات الزمنية.

7.2 استمرارية العلاقة بين الواقع والخيال

ظلت العلاقة بين الواقع والخيال علاقة ديناميكية متطورة:

- ☒ الواقع كان الحافز الدائم: السياسي، الاجتماعي، التاريخي، النفسي.
- ☒ الخيال كان الوسيلة المتغيرة: من الإطار الواقعي البسيط، إلى الرمز، إلى الأسطورة، إلى الاستعارة التاريخية، إلى الفانتازيا والديستوبيا.

7.3 دور الرواية في تشكيل الوعي العربي

لم تكن الرواية مجرد انعكاس سلبي للواقع، بل ساهمت في تشكيل الوعي العربي:

- قدمت صوراً للذات العربية في مراحل مختلفة.
- ساعدت في نقاش القضايا المحظورة (السياسة، الدين، الجنس).
- حفظت الذاكرة الجماعية في فترات التغيير والدمار.
- خلقت فضاءاً للحلم والتخيل في واقع غالباً ما يكون قاسياً.

٤.٧ آفاق مستقبلية

تواجه الرواية العربية اليوم تحديات جديدة:

1. تحدي الرقمنة ووسائل التواصل الاجتماعي التي تقدم سرديات بديلة.
 2. تحدي الترجمة والوصول إلى القارئ العالمي.
 3. تحدي معالجة الواقع المتسارع الذي يتغير أسرع من قدرة الروائي على استيعابه.
- لكن الرواية تظل فناً مرناً قادراً على التكيف. ربما يكون مستقبلها في المزيد من التهجين بين الأجناس، والمزيد من الانزياح نحو الخيال لمواجهة تعقيدات الواقع. (المديني، ٢٠٠٩: ١٨٠)

المصادر :

1. أبو حمدان، جمال، ٢٠٠٤ ذاكرة الرواية: الهوية والتاريخ في الرواية العربية المعاصرة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
2. أبو زيد، ليلى، ١٩٨٥، عام الفيل. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
3. الأسواني، علاء، ٢٠٠٤، عمارة يعقوبيان. القاهرة: دار الشروق.
4. الأشعري، محمد، ٢٠١١، القوس والفراشة. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
5. أنطون، فرح، ١٩٠٣، الدين والعلم والمال، الإسكندرية: مطبعة جريدة الجامعة.
6. أنطون، سنان، ٢٠١٨، مقبرة الرغيف. بيروت: دار الجديد.
7. بشير، محمود أمين وعبد العظيم أنيس، ١٩٩٤، في الثقافة المصرية. القاهرة: دار الهلال.
8. تليمة، صلاح فضل، ٢٠٠٥، أساليب السرد في الرواية العربية. القاهرة: دار المعارف.
9. توفيق، أحمد خالد، ٢٠١٣، يوتوبيا. القاهرة: دار الكرمة.
10. جابر، ربيع، ٢٠١١، دروز بلغراد. بيروت: دار النهار.
11. جبرا، جبرا إبراهيم، ١٩٨٥، السفينة. بيروت: دار الآداب.
12. حاوي، إحسان عباس، ١٩٧٧، فن الرواية. بيروت: دار الثقافة.
13. الخمايسي، أشرف، ٢٠١٤، طابق ثالث شمال. القاهرة: دار الرواق.
14. الخوري، خليل، ١٨٥٩، وي... إذن لسئ بأفريقي. بيروت: المطبعة السورية.
15. الخندقجي، باسم، ٢٠١٦، ساق الغراب، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
16. رحيم، سعد محمد، ٢٠١٦، مقتل بائع الكتب، بيروت، دار الساق.
17. سيداروس، سمير، ١٩٨٦، الرواية العربية، النشأة والتحول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
18. السعداوي، نوال، ١٩٧٩، امرأة عند نقطة الصفر، القاهرة، دار المعارف.
19. شكري، محمد، ١٩٨٢، الخبز الحافي، الدار البيضاء: دار النشر المغربية.
20. الشوقاوي، عبد الرحمن، ١٩٧٠، الأرض، القاهرة، دار الهلال.
21. صالح، الطيب، ١٩٦٩، موسم الهجرة إلى الشمال، بيروت، دار العودة.
22. طه، حسين، ٢٠١٢، الرواية العربية بعد محفوظ: مقاربات في الانزياح والانزياح المضاد. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
23. العثمان، الليلى، ١٩٩٥، سكرات. الكويت: دار سعاد الصباح.
24. العيد، يمنى. تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنوي. بيروت: دار الفارابي، 1990.
25. الغيطاني، جمال، ١٩٩٠، الزيني بركات. القاهرة: دار الشروق، 1990.
26. القاضي، محمد، ١٩٨٠، الرواية في الوطن العربي: من البدايات إلى السبعينيات. تونس: الدار التونسية للنشر.
27. القاسم، سمر رويحي، ٢٠٠١، الرواية العربية: تحولات الشكل والمضمون في النصف الثاني من القرن العشرين. دمشق: اتحاد الكتاب العرب.
28. الكيلاني، كامل، ١٩٧٠، تاريخ الرواية العربية، القاهرة: دار المعارف.
29. كنفاني، غسان، ١٩٧٨، رجال في الشمس. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.
30. محفوظ، نجيب، ٢٠٠٦، الثلاثية (بين القصرين، قصر الشوق، السكرية). القاهرة: دار الشروق.
31. المدني، أحمد، ٢٠٠٩، الرواية العربية: من التأسيس إلى الانزياح، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
32. مستغانمي، أحلام، ١٩٩٣، ذاكرة الجسد. بيروت: دار الآداب.
33. منيف، عبد الرحمن، ١٩٨٧، شرق المتوسط. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
34. منيف، عبد الرحمن، ١٩٨٤، مدن الملح (الجزء الأول: التيه). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
35. نعيمة، ميخائيل، ١٩٤٩، مذكرات الأرقش. نيويورك: مطبعة الفنون.
36. هيكل، محمد حسين، ٢٠١٢، زينب. القاهرة: مؤسسة هنداوي.
37. وطار، الطاهر، ١٩٧٤، اللاز. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
38. هيوغ، فريدا، ٢٠١٥، الرواية العربية: النوع والتاريخ. ترجمة: حصة منيف. أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة.
39. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين. لسان العرب. بيروت: دار صادر، 1990، مادة (ر و ي)، ج١-٤.
40. بدوي، أحمد أحمد. معجم المصطلحات الأدبية. القاهرة: دار الشروق، 1993.
41. لوكتاش، جورج. نظرية الرواية. ترجمة: الحسين سحبان. الدار البيضاء: دار توبقال، 200٦.
42. سيداروس، سمير. الرواية العربية: النشأة والتحول. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 198٦.
43. مجمع اللغة العربية بالقاهرة. المعجم الوسيط. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 200٤، ج٢.
44. الزبيدي، مرتضى. تاج العروس من جواهر القاموس. بيروت: دار الفكر، 199٤، مادة (خ ي ل)، ج٥-٢.

Source of support: Nil; Conflict of interest: Nil.

Cite this article as:

"□□□□ □□□□ □□ □□□□." بين الواقع والخيال: رحلة الرواية العربية في العصر الحديث. Sarcouncil Journal of Arts and Literature, 5.1 (2026): pp 63-68.